الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جامعة أحمد زبانة غليزان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

تخصص: السنة الثالثة ليسانس نقد ودراسات أدبية.

مقياس: نقد النثر القديم.

السداسي الخامس.

يوم الأربعاء 08:30 سا-09:30 سا.

الأستاذة : خلوف نعيمة

جامعة غليزان - الجزائر.

naima.khellouf@univ-relizane.dz

المحاضرة الخامسة : الكتابة عند عبد الحميد.

تمهيد:

تطور النثر الفني عند العرب على مراحل مختلفة، حيث سار إلى جانب الشعر، وبلغ شهرته وتفوق عنه أحيانا، ومن آثار العرب في هذا الفن قبل الإسلام وبعده شاهد على ذلك الثراء المعرفي والأدبي، والثقافي الذي نقله النص الأدبي النثري إلى مكتبة العرب حاليا.

تطور معالم النثر الفني عند العرب:

إن العربي بطبعه ميّال إلى قرض الشعر، والتغني به في معظم المناسبات، والأيام المميزة، والاحتفالات الدينية خاصة. أما الافتتاح لهذه المناسبات وبداية القول فيها، يسند إلى الخطباء الذين يمتلكون ناصية اللغة وأسماع القوم، وهم أول من يعلن الانطلاق وآخر من

يختم المناسبة. هذا المظهر الأدبي - الخطبة - جنس من فن النثر الغالب عليه قبل العصر الجاهلي وبعده.

وفيما يخص الفنيات الأدبية؛ التي اتسمت بها الكتابات النثرية العربية حدث بفعل التأثير بالآداب الأعجمية، حسب رأي المستشرق المسيو مرسيه وأن الزخرف الفني وصل إلى العرب من الفرس، وكان طه حسين يشايعه في ذلك، ثم تغير فجأة فزعم أنه وصل إلى العرب من اليونان وكانت حجته وحجة مرسيه أن المولعين بالزخرف من كتاب اللغة العربية أكثرهم من الفرس المستعربين¹. هذا الرأي فيه وجهة نظر حين يرد زكي مبارك، فهو مقتنع بوجود مسحة أعجمية خاصة الفارسية في النثر الفني العربي؛ إلا أنه يؤكد على خاصية العربية وجماليتها بوجود النص القرآني المعجز بلفظة ومعناه، فيقول: أليس القرآن آية فنية؟² إن إنكار هذه الخاصية في القرآن الكريم هو إنكار للمعجزة الإلهية في كتابه العزيز.

إن البحث النقدي أعاد قراءة النص العربي منذ العصر الجاهلي؛ هناك تميز بالبلاغة؛ حيث جمعت فنون القول وجميل المعاني، لأن المكنة اللغوية والأدبية في الشعر تعكس حال النثر لوجود قواسم مشتركة بين الشاعر والأديب، أهمها: اللغة العربية، والبيئة، وهما أكثر العوامل تأثيراً.

تأثرت الطاقات الإبداعية العربية بالنص القرآني ونهلت منه أساليب التعبير، وصور الأداء، والألفاظ الدقيقة، والمعاني الخفية، وعادت إلى إحياء الكلام العربي القديم، لفهم ما استجد منه على الساحة الأدبية، ومن النصوص النثرية التي عززت مكانتها إلى جانب النص القرآن؛ الذي يصنف في مرتبة خاصة وهي المعجزة أو النص النموذج، الذي لا يجاريه نص أبداً. يوجد الحديث النبوي الشريف، وخطب الخلفاء والولاة والقواد الذين شهدوا عصر النبوة وكلها تمتاز بخواص فنية موجودة في القرآن الكريم.³

وما هو جدير بالاهتمام أن نتيجة ما قد سلف أن العرب في جاهليتهم، اهتموا بالنثر الفني اهتماماً ظهر أثره، وعرفت خواصه في خطب الخطباء، وسائل الكتاب؛ ولكن ما عرف

¹ - زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ط 01، 2012 ،

ص45. بتصرف.

² - زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ص46.

³ - زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ص47. بتصرف.

عن العرب من إهمال التقييد، والتدوين لشيوع الأمية فيهم أضع علينا معرفة من اهتموا اهتماما جديا بتدوين البديع، فكان من ذلك أن شاع الاعتقاد بأن ابن المعتز هو أول الكاتبين في هذا الفن الجميل⁴، وبمعنى آخر أن الكتابة في علم البديع تتأسس بعد استعمال البديع وشيوعه في النص الأدبي العربي وخاصة النثري منه. فكان من بين الكتاب العرب الذين يؤرخ بهم لفن الكتابة النثرية عبد الحميد الكاتب، وابن المقفع.

سيرة عبد الحميد الكاتب: ⁵

هو عبد الحميد بن يحيى مولى علاء بن وهب القرشي، ويقول من كتبوا عنه إنه يرجع إلى أصول فارسية وأنه كان من أهل الأنبار وسكن الرقة، وكان أول من ينتقل في البلدان معلما في الكاتيب، ثم التحق بديوان الرسائل في دمشق لعهد هشام بن عبد الملك، واتصل بمروان بن محمد وكتب له أيام كان واليا، فلما صارت إليه الخلافة أقامه على ديوانه، فنهض بالعمل فيه خير النهوض.

فن الكتابة عند عبد الحميد:

تأسست الدولة الإسلامية بعد أن انتشر الإسلام خارج حدود جزيرة العرب. واستلمت مقاليد الحكم في يد الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم جاء بعدة فترات متباينة زمنيا تحت قيادة الخلفاء الراشدين، وبعدهم استلم الزعامة السياسية الأمويون، وتميزت آخر السنوات من فترة حكمهم بالاضطرابات السياسية أدت إلى انهيار حكمهم وخلفهم فيه العباسيون.

أما أثناء خلافتهم وصلت الدولة الإسلامية - الأموية - إلى مستوى سياسي، واقتصادي، واجتماعي لم يعرفه المجتمع العربي سابقا، وأثر هذا التغيير على طبقة الشعراء، والكتاب، والأدباء، قد ظهر جليا من خلال كتاباتهم، لأن منصب الكاتب في الدولة أصبح مهما، ومكانته في مجلس الخليفة من مكانة الحاكم، وتطورت العلاقة بينهم فأصبحت صداقة مثلما حدث بين عبد الحميد الكاتب والخليفة محمد بن مروان. وبعد حصيلة من النشاطات الأدبية والمهام الإدارية في بساط الحكم أبدع عبد الحميد الكاتب في كتاباته الأدبية.

اشتهر عبد الحميد الكاتب بفن التراسل، وأبدع في رسائله الإخوانية والديوانية، وأدى مهمته التي نصّب نفسه لأدائها بإخلاص. فكان أبلغ الكتاب في العصر الأموي وقد ضربت

⁴ - زكي مبارك، النشر الفني في القرن الرابع، ص54. بتصرف.

⁵ - شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 10، دت، ص114.

ببلاغته الأمثال، فقل: فتحت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد. ويقول ابن النديم: عنه أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسل. والحق أنه القمة التي وصلت إليها الكتابة الفنية في العصر الأموي، إذ كان زعيم البلغاء في عصره، وقد بقيت منشورات من رسائله تشهد بفصاحته ولسنه ومقدرته على التعبير والبيان، مع الفخامة والطلاوة.⁶

يتميز أسلوب عبد الحميد الكاتب بخصائص فنية تفرد بها دون غيره من الكتب وهي:⁷

- جودة التقسيم ودقة المنطق، خاصة في الرسائل القصيرة.
- الاعتماد على البديع، وأوجه البيان.
- توظيف الطباق ومقابلاته والصور وألوانها وخاصة لون الاستعارة
- الازدواج والترادف الموسيقي الذي يتيح لعباراته فنونا مختلفة من الإيقاعات والموازنات الصوتية.
- دقة المعاني تجعل القارئ يحس بالجمال وتصوره، وطربه بالموسيقى اللفظية.

⁶ - شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص114.

⁷ - شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص120، بتصرف.